عيد الميلاد

تأليف : أنتوني تشيكوف

ترجمة : حليم الاسيوطي

انتوني تشيكوف قصاص روسي من الطراز الاول ، أبدع في تصوير شخوصه والحياة الانسانية تصويراً بلغ حد الكمال ، فهو يبعث فيهم وفي الحياة ناضرة نابضة فتراهم يتحركون . والنشاط والحياة تلفهم . وفي هذه القصة القصيرة يرسم لنا الكاتب العظيم صورة لكهل وزوجه العجوز يذهبان الى جندي متقاعد احترف تسطير الرسائل ليكتبا له رسالة الى صهرهما في بطرسبرج . وفي الحديث الذي يدور بينهما وبينه تبدو عقلية هذا الصنف من الناس وغيرهم ممن عاشوا في هذه الحقبة القصيرة — المترجم .

ماذا أكتب ؟ هكذا تساءل يجور وغص في الحيرة قلبه . منذ أربعة أعوام لم تر فاسيليزيا ابنتها التي ذهبت الى بطرسبرج عقب زفافها ، ثم أرسلت الى أمها خطابين ومنذ ذلك الحين ، انقطعت أخبارها ، كأنها غرقت في الدنيا فلم يعد يسمع لها صوت ، ولا يلوح لها خيال. وكانت المرأة العجوز دائبة التفكير في شيء واحد ، سواء أكانت تحلب البقرة في فجر الصباح أم توقد النار في المساء أم تغفو في الليل — ماذا حدث ليفيا ؟ أهي حية ترزق وقد أضحى التنائي من التداني بديلاً . وكان فرضاً عليها أن ترسل خطاباً ، فالوالد مسن ، وهن عظمه واشتعل منه الرأس شيباً ، لا يستطيع الكتابة ، وليس في الكورة من يكتب ، وقد أقبل عيد الميلاد ، وفاسيليزيا لا تطيق صبراً أكثر مما احتملت ، فذهبت الى الخان حيث يجلس يجور أخو زوج صاحبه ، وهو متعطل منذ عودته من الجندية ويزعم الناس أنه ذو مقدرة فائقة في تحرير الكتب إذا أجزل له العطاء ، فحدثت فاسيليزيا طاهي الخانة ثم ربة الدار ، ثم يجور ، وتم الاتفاق على خمسة عشر (كوبك) . وكان ذلك في اليوم الثاني من عطلة العيد. وفي مطبخ الخان حيث جلس يجور الى المنضدة ممسكاً بقلمه في يده ، ووقفت فاسيليزيا أمامه وقد ارتسمت على وجهها دلائل القلق ، وبدت على أساريرها علامات الألم ، وكان يرافقها

زوجها بوزر، وهو شيخ نحيل توجت رأسه قمة صلعاء، سار مرسلاً نظراته في شعاع مستقيم كأعمى، وكانت شريحة من لحم الخنزير تقلى على الموقد في طاجن مع قليل من عصير الطماطم، تئز بأصوات وقعها في الأذن مثل كلمات فلو فلو فلو ترسلها وهي تقرب من النضج.

***

عاد بوجر يكرر سؤاله: ماذا أكتب؟ ماذا تساءلت فاسيليزيا ناظرة اليه في خفض وفك. لا تثقل علي، فإنك لن تكتب لي بدون أجر. لا تخش شيئاً فإني سأنقدك أجراً عن عملك هيا اكتب: الى صهرنا العزيز أندري هريساتفتش، وابنتنا العزيزة الوحيدة يفيا بتروفانا في شوق لاعج نبعث بتحياتنا في حب واعزاز، داعين لكما بالبركات تغمركما أبد الحياة. نتمنى لكما عيشاً سعيداً نحن ننعم بعيش خافض وحياة رغدة نرجو لكما أطيب منها،.... استجب يا الهي دعواتنا.... ياسيد السموات والأرض»

غرقت فاسيليزيا في تأمل عميق، ثم أفاقت وتبادلت النظرات مع رجلها المسن.

«..... ونرجو لكما أطيب منها، تقبل دعائي يا خالق السموات والأرض». رددت فاسيليزيا الدعاء وبدأت تنتحب حتى عجزت عن أن تفوه بأكثر مما قالت، وكانت تخال في ليلتها الماضية وهي مستلقية على فراشها، مستغرقة في هواجسها وأحلامها إنها لن تكفيها عشر صفحات لتودعها ما في رأسها من أفكار. إذ منذ رحلت الابنة صحبة زوجها فاض ماء البحر غزيراً جارفاً، وحرم مسنو الأسرة الخير والنماء وباهوا في حاجة وعوز، ضائقة صدورهم بالتنهدات والأنين ليلاً، والشكوى يرددونها نهاراً، وغدوا كمن واروا ابنتهم الثرى وفقدوها الى الأبد. لقد وقعت أحداث كثيرة في القرية منذ غادرتها يفيا فكم من زفاف وكم من وفاة، ما أطول فصول الشتاء وما أمر لياليه.

«الجو حار» قال بوجر وهو يفك أزرار سترته، وأردف لا بد أن درجة الحرارة قد بلغت السبعين، ثم سأل هل من مزيد؟

صمت الرجل المسن، وسكتت زوجه العجوز... ثم أردف لقد كان جندياً، يا صديقي الطيب، فاه الرجل في صوت خفيض، وترك الجندية في الوقت الذي عدت فيه. كان جندياً

وثق مما أقول ، ولكنه يقيم الآن في بطرسبرج بواباً لمؤسسة العلاج المائي حيث يعالج الطبيب مرضاه بالماء دون غيره من العقاقير أو الأصلحة .

ثم قالت المرأة العجوز وهي تخرج خطاباً من جيبها لتمرّ ان ما سمعت ولوحت بالخطاب في يدها ، مكتوب هنا ، ولقد جاء من بيتها ولمكن متى كان ذلك فعلمه عند ربي . أليس من المحتمل أنهما صارا في عداد الأموات . ففكر يوجر قليلاً ، ثم عاود الكتابة عن محل من املاء العجوز .

ثم استأنف الرجل العجوز إملاءه من جديد يقول « وفي الوقت الحاضر » أكتب يا يوجر ... « ومن يوم كتب عليك الانخراط في سلك الجندية ونحن ننصح لك أن تقرأ مجموعة الجنح التأديبية والقوانين الأساسية للإدارة الحربية ، وسيبين لك من قراءتها ما يضطلع به رجال الحرب » .

سطر يوجر ما سمعه ، ثم قرأ عليهما ما سطر في صوت مرتفع بينما كانت فاسيليفنا تتدبر ما يجب اضافته الى خطابها ... كيف كانت حالهم في العام المدبر ، ولم تكف الغلة حاجتهم حتى عيد الميلاد فاضطروا الى بيع البقرة فيجب والحال هذه طلب نقود وتصوير ما غدا فيه الرجل الشيخ من شكايات متواصلة دائبة وربما فارق الحياة وشيكاً .... ولكن أنى للمرأة العجوز الافصاح عن دخيلة نفسها ومكنون قلبها والألفاظ لا تطاوعها ؟ ولا تعرف كيف تبدأ ولا متى تنتهي . فصمتت وعاود زوجها الاملاء قائلاً « أكتب ملحوظاته » فاستأنف يوجر الكتابة « في المجلد الخامس من أنظمة الجيش كلمة جندي اسم يكون تارة عاماً وأخرى علماً ، والجندي في المرتبة الأولى هو القائد ، وفي المرتبة الدنيا ... ثم قطع الحديث وحرّك الرجل الهرم شفتيه بعد برهة ، وقال في رقة وهدوء » انه لمن الواجب وعن الصواب أن يعني الابناء بالأحفاد فسألت المرأة ، وقد استشاطت غضباً : أي أحفاد تعني ؟ فأجاب الشيخ ، أليس من الجائز أن يكون هناك أحفاد ؟ ربما كان هناك بعض الحفدة في بيوتي ؟ فقاطعته قائلة :

أهكذا يكون تصورك للأشياء ؟ وأسرع يوجر في عمله ، وأسرع النسخ في الاملاء ... ان ألد أعدائنا في الداخل وفي الخارج هو باخوس اله الخمر .

صرّ القلم بين أصابع يوجر ولمع كشص صياد عند ما أجراه على القرطاس ، وأسرع فتلا كل ما سطر .

وكان يوجر يجلس على مقعد يحرك قدميه العريضتين تحت نضد أمامه ، تنطق ملامحه بالفتوّة والشباب ، ويترقرق ماء العافية في وجنتيه ، ووجهه كالح كوجه حيوان كاسر ، ورقبته كرقبة ثور ، فهو الفظاظة مجسمة ، مغرور بطفولته وصوته التي أفلتها صفاء الحان حيث درج منذ الصغر .

وكانت فاصيليزيا تعي صفات يوجر ، ولكن تنقصها قوة التعبير ، فنظرت اليه وهي تتميز من الغيظ ، وأتابها الدوار واستعصى عليها التعبير ، وصبّ لها صوته الأجش وعجرفته الخشنة الصداع ، وسنحا عليهما القول ، وزاد الحال سوء حرارة المكان ، وهواؤه الفاسد ، فأمسكت عن التفكير وتمهلت ريثما يفرغ يوجر من كتابته ، بينما نظر الرجل الكهل في ثقة واطمئنان ، ثقة بزوجه ، واطمئنان اليها ، وقد جاءت به الى ذلك المكان كما كان يرتاح الى يوجر فلما ذكرت كلمة دار العلاج المائي نطقت أسارير وجهه بإيمانه بها ، وقوة عقيدته في الماء على الشفاء .

* * *

وحين فرغ يوجر من تسطير الكتاب وقف يعيد تلاوته ، والشيخ يهزّ رأسه مظهراً راحته الى ما يسمع دون أن يفهم له معنى .

قال الشيخ : « تجري الأمور طوع ما نبغي ، فالخطاب رقيق حافل جزاك الله طيب الصحة يا بنيّ . . . . الحال مرضية راضية .

ألقت المرأة والشيخ بقطعة نقود من ذات الخمسة (كوبك) على النضد ، وغادرا الحان والرجل ثابت البصر ، لا يطرف كأنه أعمى او تسمت دلائل المرونة والحكمة كاملتين على وجهه ، أما فاصيليزيا فما وضعت قدمها خارج عتبة المنزل حتى لوّحت بيديها حانقة مغيظة وهي تقول « فليأخذك الوباء » .

قضت المرأة العجوز الليل بطوله ساهرة مسهدة ، ما اكتحلت عيناها بنوم ، ولا أخذتها

سنة ، تقض البلابل والهموم مضجعها . ثم لاح الفجر حتى هبت من رقادها [illegible] ،
ثم خرجت تقصد مكتب البريد سعياً على الأقدام لتلقي بالخطاب ، وهو يبعد مسافة تسعة أميال

* * *

— ٢ —

بدأت عيادة الطبيب ب . و . فوريلوز في صبيحة العام الجديد تستعيد نشاطها ، وتستكمل جميع مظاهرها السالفة إلا شيئاً واحداً ذلك أن الحاجب اندري مارتشن ارتدى حلة رسمية ذات حمائل وأولى حذاءه نظافة فائقة ، وحيي الزائرين قائلاً : عام سعيد .

وقف بالباب يقرأ صحيفة بيده ، وفي الساعة العاشرة وفد الى الدار ضابط عظيم ، تعوّد الاختلاف اليها ، وقدم في أثره ساعي البريد فتلقف أندري معطف الزائر وحياه بالعيد قائلاً : عام سعيد يا سيدي ، فأجاب الضابط : أشكر لك تمنياتك أيها الفتى الطيب ، وقاله مثل ما زجره ، ولما بلغ أعلى درجات السلم أومأ برأسه تجاه الباب وألقى سؤالاً اعتاد أن يلقيه كل يوم وينسى الاجابة عليه : ما الذي بهذه الحجرة ؟ انها غرفة التدليك يا سيدي .

هدأت خطوات الضابط وخفت وقعها ونظر اندري الى الرسائل التي وصلت فوجد بينها رسالة باسمه ، ففض غلافها وقرأ بضعة سطور منها ، ثم مضى وئيد الخطى ، وهو ينظر في الصحيفة ، نحو حجرة في الطابق السفلي في الجهة المقابلة للبهو .

كانت بها زوج أندري في فراشها ترضع طفلها وبجوارها رقد أكبر الأطفال سناً ، واستلقى الثالث مسنداً رأسه بشعرها المتموج نحو ثدي أمه .

دفع اندري الخطاب الى زوجه وهو يطأ أرض الحجرة وقال : خطاب أختك من القرية .

وغادر الحجرة ولا زال بصره عالقاً بالصحيفة ، واستطاع أن يسمع بها وهي تتلو السطور الأولى من الخطاب في صوت متهدج باكٍ ، قرأت السطور الأولى ولم تستطع الاستمرار ، فلما قرأت الكتابة ، ثم اشتركت في البكاء واحتضنت طفلها الأكبر ، وطبعت على وجهه قبلاتها ، وفي صوتها حشرجة ليست بنشيج البكاء ولا بقرقعة الضحك وقالت بلسان حال رضيعها :

خطاب من جدتي، نعم خطاب من جدتي، من القرية يا للسماوات، ويا للقديسين والشهداء، ان الجليد الآن يتراكم أكواماً تحت سقوف المنازل ... والأشجار تكسو رؤوسها تيجان ناصعة البياض من الثلج، والصبية تنزلق في مركباتها الصغيرة، وجدي العزيز الأصلع يجلس بجوار المدفأة. وكذا كلبنا الصغير ... اني أعرف أحبائي.» طرقت تلك الكلمات سمع اندري فذكر خطابات زوجه التي أعطتها له رجاء أن يبعث بها الى القرية ولكن في كل مرة كان يحول دون ذلك عارض عنده، فنفدت جميعها الا الأبد.

« الأرانب البرية تسرح حوالي الحقل» غنت بفمها وغمرت طفلها بالقبلات وفاضت عيناها بدمع هتون وأردفت « ان جدي عطوف رقيق .... وجدتي رحيمة حسنة الطوية وأهل الريف ذوو ضمير نقي دافق، وعاطفة مشبوبة جياشة، يخشون الله، ويعيشون في مخافته، والقرويون يرتلون الترانيم في الكنيسة الصغيرة. ابتعدي بنا عن هذا المكان البغيض أيتها السماء، أيتها الأم المباركة المقدسة»

* * *

عاد اندري الى الغرفة ليدخن لفافة تبغ في انتظار دقات طارق جديد فأمسكت بفمها عن الكلام واعتصمت بالصبر، وجففت الدموع في مآقيها وما زالت شفتاها ترتعشان، فقد كانت ترهب زوجها وتخشى بطشه وسطوته.

ارتعدت فرائصها ومِلأها الذعر عند سماعها وقع أقدامه، وتبينت في عينيه ما أخرسها من التذوّء بكلمة في محضره.

لم يكد أندري يشعل لفافته حتى دق الجرس فأطفأها، واستقام الرزانة وأوسع الخطى نحو الباب الأمامي. كان الضابط يهبط الدرج منتعشاً متورد الوجنات بعد حمامه.

سأل، كما سأل من قبل مرات، وسبابته تشير الى الباب: « وماذا عساه يكون في تلك الحجرة؟»

وضع اندري يديه في سرعة وخفة بجانبه كعادة الجند وأجاب في صوت مرتفع، منمن الماء الساخن يا سيدي.

تمت